وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾

**شرح الكلمات:**

**رَتَّلْناه:** رتَّل الكلامَ: أحسنَ تأليفَه. ورتَّل القرآنَ: تأنَّقَ في تلاوته. (الأقرب)

**التفسير:** لقد ردّ الله تعالى هنا على اعتراض آخر للكافرين. لقد قالوا حيث إن القرآن لم ينـــزل على محمد (ﷺ) جملة واحدة، فهذا يدل على أنه لم ينـــزل من عند الله تعالى، بل قد اختلقه محمد من عنده حسب الظروف والحاجة. فيجيب الله تعالى ويقول: صحيح أن القرآن الكريم لم ينـــزل دفعة واحدة، بل نـــزل بالتدريج

في مدة طويلة، ولكن كان في هذا الأسلوب من النـــزول هدف معين، وهو أن نقوي بذلك قلبك يا محمد (ﷺ). ثم إننا قد أحكمنا تأليفه وترتيبه أيضًا. ومن فوائد إنـــزال القرآن بالتدريج أنهم كلما أثاروا اعتراضًا أتينا في القرآن الكريم بالحق إزاءه وبتفسير أفضل.

الغريب أن المستشرقين المسيحيين لا يزالون يرددون هذا الاعتراض حتى اليوم، ويقولون إن في نـــزول القرآن بالتدريج دليلاً على أنه ليس من عند الله تعالى. فما الداعي أن ينـــزل الله كلامه بشكل متقطع، مع أنه يعلم أحوال المستقبل أيضًا، فكان قادرًا على أن ينـــزل الوحي مرة واحدة؟ إن في تأليف هذا الكتاب بالتدريج دليلاً على أن محمدًا (ﷺ) كان - حاشا لله - يختلق القرآن من عنده بحسب الأحداث والظروف. (تفسير القرآن الكريم للقسيس "ويري" المجلد الأول ص ١٠٧-١٠٨)

فيرد الله تعالى على هذا الاعتراض ويقول ليس في نـــزول القرآن الكريم على فترات دليلٌ على ضعف في الله تعالى، وإنما الغرض منه تثبيت فؤاد النبي ﷺ.

أما كيف كان النـــزول التدريجي للقرآن الكريم يؤدي إلى تقوية قلب النبي ﷺ، فبيانه كالآتي:

**أوّلاً**: لو نـــزل القرآن الكريم دفعة واحدة، وظلّ النبي ﷺ يستدل به بنفسه ويجتهد عند كل قضية، لما كان لهذا على قلبه نفس التأثير الذي يمكن أن يكون لوحي الله النازل على قلبه وقت الحاجة فورًا. فمثلا إن المتعة التي كان يجدها النبي ﷺ عند نـــزول الوحي عليه فورًا عند الحاجة واطلاعه على مشيئة الله تعالى في قضية من القضايا كيف يمكن أن نجدها حين لا يكون عندنا إلا الاجتهاد والاستدلال في قضية ما؟

**ثانيًا**: إن الكتاب الذي يكون للعالم كله لا بد من حفظه، ولكن لو نـــزل القرآن الكريم دفعة واحدة لما تمكن من حفظه عن ظهر قلب إلا الذي ينذر كل حياته لهذا الغرض، ولكن نـــزوله بالتدريج جعل مئات الناس يتقدمون لحفظه عن ظهر قلب. فكانوا يقومون بمشاغل الحياة المختلفة كما يحفظون القرآن الكريم،

فاطمأن النبي ﷺ بالاً وأيقن بأن هذا الكتاب لن يضيع الآن، بل صار محفوظًا إلى يوم القيامة. ولهذا السبب نفسه قد وُجد في عهد النبي ﷺ حُفّاظٌ كثيرون للقرآن الكريم، ولكن لا يوجد حفّاظ الآن بنفس الكثرة، وليس ذلك إلا لأنه كان ينـــزل قليلا قليلا، فكان الناس يحفظونه عن ظهر قلب بسهولة.

**ثالثًا:** والحكمة الثالثة أن القرآن لو نـــزل دفعة واحدة لما رسخ تعليمه في قلوب الناس كما ينبغي. فمثلاً عندما يدخل أحد من الهندوس في الإسلام اليوم يجد حوله أناسًا مسلمين يعملون بأحكام الإسلام، فلا يجد قلقًا ولا مشقة في العمل بالقرآن الكريم، ولكن لو ألّفنا كتابًا جديدًا دفعة واحدة، وسألناه أن يعمل به بدون أن يكون أمامه نموذج للعاملين به يحتذي بهم، لما استطاع العمل به حتى في قرن من الزمان. إذًا، فقد كان ضروريًا لترسيخ تعليم القرآن الكريم في القلوب أن ينـــزل تدريجيا، وأن لا ينـــزل حكمٌ ثان إلا بعد أن يتعلم الناس العمل بحكمه الأول، وهلم جرا، وهكذا يتم تدريبهم على الأحكام كلها.

**رابعًا:** لو نـــزل كل القرآن الكريم دفعة واحدة لجعل الله تعالى له نفس الترتيب الموجود حاليًا، ولكن إنـــزاله على الترتيب الحالي كان خطيرًا في تلك الظروف، تمامًا كما أن الترتيب الذي نـــزل به القرآن خطير لنا اليوم. فمثلا لو بدأ القرآن بأحكام الصلاة دون أن يثبت صدق نبوة الرسول ﷺ لم يستوعب المسلمون تلك الأحكام، لذا كانت الحاجة عندئذ إثبات ألوهية الله تعالى وتوحيده ونبوة الرسول ﷺ أوّلاً، وكان ضروريًا أن يبين الله تعالى لهم أنه موجود، وأنه واحدٌ أحدٌ، وأن محمدًا رسوله الحق، ثم بعد ذلك كان من المناسب أن يُدعوا إلى شتى الأعمال والأحكام من صلاة وغيرها. ولكن ذلك الترتيب ليس ضروريًا الآن إذ توجد هناك جماعة كبيرة من المؤمنين بالله ورسوله، وكل من يدخل في الإسلام يدخل بعد الاطلاع على صدق النبي ﷺ ومحاسن الإسلام، لذا فهو بحاجة إلى الترتيب الحالي للقرآن.

إذًا، فلو نـــزل القرآن الكريم دفعة واحدة لم يستوعب الناس في ذلك الزمن ترتيبه الحالي، فمثلا لو نـــزلت سورة البقرة في بداية الإسلام لم يفهم المسلم عندئذ معنى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، بل قال في حيرة: أين الكتاب الذي يشير الله إليه، بيد أن كل مسلم كان قادرًا عندئذ أن يستوعب جيدًا قول الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، تمامًا كما أن كل مسلم اليوم يفهم معنى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، إذ يوجد أمامه كتاب سماوي متكامل.

**خامسًا:** لو نـــزل القرآن الكريم دفعة واحدة لما كان من الممكن الإشارة إلى بعض الأنباء. فمثلاً هناك نبوءة في القرآن الكريم بأن الله تعالى سيعصم رسوله ﷺ ويخرجه من حصار الأعداء سالمًا، وعندما أخذ الله نبيه إلى المدينة بحسب هذه النبوءة لتعذر عندها الإشارة إلى ذلك في القرآن لو كان قد نـــزل كله من قبل دفعة واحدة، ولاستحال القول: ها قد أخرجنا رسولنا من بين أعدائه تحقيقًا لوعدنا بعصمته. إنما كان ذلك ممكنًا فقط لو نـــزل جزء من القرآن أولاً يتضمن نبوءة إنقاذ الرسول ﷺ من أعدائه سالمًا، ثم ينـــزل عند تحقق هذه النبوءة جزءٌ آخر من القرآن مشيرًا إلى تحقق هذه النبوءة.

**سادسًا:** وعندي أن هناك سببًا هاما آخر وراء ذلك، وهو أنه لو نـــزل القرآن الكريم دفعة واحدة لقال المعارضون أن أحدًا قد قام بتأليفه وأعطاه لمحمد (ﷺ)، ولكن الأمر الواقع أن بعض القرآن قد نـــزل بمكة وبعضه في المدينة. فلو صح قول أهل مكة أن أحدًا يؤلف القرآن لمحمد في مكة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: فمن ذا الذي كان يؤلف له القرآن في المدينة إذن؟ ثم إن بعض القرآن الكريم قد نـــزل في السفر وبعضه في الحضر، وبعضه في المجلس وبعضه في الخلوة أيضًا، وبعضه في ظلام الليل وبعضه في وضح النهار أيضًا؛ وهكذا أبطل الله تعالى زعم الكافرين بأن جماعة من الناس تعين محمدًا على تأليف القرآن الكريم. لو نـــزل الكتاب دفعة واحدة فكان بوسع المعترضين أن يقولوا إن بعض الناس قام بتأليفه فقرأه محمد على الناس. ولكن ما دامت آيات القرآن الكريم تنـــزل بحسب كل

مناسبة وبمقتضى كل ظرف، فكيف يصح القول أن أحدًا كان يختلق آية جديدة في كل مناسبة. فثبت أن نـــزول القرآن الكريم بالتدريج قد كان تثبيتًا لفؤاد الرسول ﷺ حقًّا، وكل يوم جديد يطلع عليه ﷺ كان يزيده إيمانًا وعرفانًا.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.. أي أننا قد جعلنا للقرآن الكريم ترتيبًا رائعًا أيضًا.. بمعنى أن القرآن الكريم قد نـــزل بترتيب كان ضروريًا لأهل عصر الرسول ﷺ، ولكنا قد جعلنا له ترتيبًا آخر ينفع الناس في المستقبل حسب ظروفهم. إن هذا الترتيب أيضًا دليل على أن القرآن الكريم ليس من تأليف بشر، بل هو تنـــزيل من الله تعالى؛ إذ لو كان القرآن الكريم من تأليف بشر لجعل له ترتيبًا واحدًا وألّفه بحسب ترتيب تقتضيه الظروف التي يمر بها، ولكن لما كان القرآن الكريم تنـــزيلا من الله عالمِ الغيب، وكان هداية للناس إلى يوم القيامة، فجعل تعالى بحكمته الكاملة ترتيبًا لنـــزوله، وترتيبًا آخر لتدوينه وتحريره. لقد كان ترتيبه النـــزولي بالنظر إلى حاجات القوم المعاصرين للقرآن الكريم دفعًا لشبهاتهم وحلاً لمسائلهم، أما ترتيبه من ناحية التدوين فكان بالنظر إلى حاجات الأجيال المسلمة التالية التي يجب أن تكون مطلعة على مسائل الدين إلى حد كبير، لكونها قد وُلدتْ في بيوت مسلمة، أو لتواجدهم بين جماعة من المسلمين فما كانت المسائل التي كان نقاشها ضروريًا في أوائل قيام الإسلام تشكّل لتلك الأجيال أهمية كبيرة. فمثلاً إن جميع المحدثين والمؤرخين متفقون على أن أول ما نـــزل من القرآن الكريم على الرسول ﷺ هو قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي)؛ ولكن هذه الآية مدونة في الجزء الأخير من المصحف، بل في أواخر الجزء الأخير أيضًا. فشتان بين أن يبدأ نـــزول القرآن الكريم بهذه الآية وبين أن تدوَّن في أواخر الجزء الأخير من المصحف. وهذا يدل على أن الحكمة الربانية اقتضت أن يكون القرآن الكريم بترتيبين: ترتيب كان ملائمًا لظروف المسلمين الأوائل وحاجاتهم، وترتيب آخر كان بحسب حاجات المسلمين الذين يأتون بعد اكتمال نـــزول القرآن الكريم. ولذلك لم يقل الله تعالى في أول وحيه ﴿اقْرَأْ﴾، ولم يقل "اقرأْ هذا الكتاب"، إذ لم يوجد هناك كتاب بعدُ، ولكن في الزمن الذي

نـــزلت فيه سورة "البقرة" كان هناك كتاب إذ كانت الكثير من السور قد اكتمل نـــزولها بمكة مثل سور الإسراء والكهف ومريم وطه وغيرها بما فيها سورة ﴿اقْرَأْ﴾ أيضًا، فقال الله تعالى عندها في سورة البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، وكان هذا قولا سليمًا ومفهومًا للناس.

ولشرح هذا الأمر أضرب مثالاً من حياتنا المادية. إن الطباخ يبدأ في بعض الأحيان في إعداد صنف من الطعام يؤكل في آخر الوجبة، ويؤخر إعداد صنف يؤكل في أولها. ولو اعترض عليه أحد قائلا لماذا تطبخ أولاً ما يؤكل في الأخير لأجابه: صحيح أن هذا الطبق يؤكل في الأخير، ولكن تجهيزه يستغرق ربع ساعة فقط، ولو أني صنعته في أول الأمر لم يبق له نفس الطعم أو ربما فسد. أما الطبق الذي سيؤكل في الأخير فطبختُ أولاً لأن إعداده يستغرق ساعتين ونصف، ولو لم أبدأ بتجهيزه في البداية لم يستوِ جيدًا.

فثبت من هنا أن هناك حكمة في الترتيب الذي راعاه الطباخ في إعداد الطعام، فأعده بترتيب مغاير لترتيب تناوله. فعندما جهز الطعام لم ير أي الأطعمة سيؤكل أولاً، وإنما رأى أي الأصناف سينضج بسرعة، فأخره عند الطهي، وبدأ بالصنف الذي يستغرق نضجه وقتًا أطول، إذ لو أخر طهيه لم ينضج جيدًا.

لقد اتضح من هذا المثال أن بعض الأشياء تُعَدّ بترتيب وتُستعمل بترتيب آخر. بل هذا هو الأسلوب الذي نلاحظه في كل عمل في الدنيا. وعلى سبيل المثال، حين تريد الدولة إعداد الجنود وتنظيم البلاد وتعليم الناس وتدريبهم على مهارات شتى، تبدأ بتدريب بعض الفئات التي يأتي دورها في العمل في المرحلة الأخيرة، بينما تؤخر تدريب الفئات التي يأتي دورها في العمل في المرحلة الأولى. فمثلاً هناك فئة يستغرق تدريبها ستة أشهر مثلاً، وفئة أخرى يستغرق تدريبها أربع سنوات، فسيبدأ تدريب الفئة الأخيرة قبل الفئة الأولى وإن كان الجميع سيبدأون العمل في وقت واحد. كما أن بناء العمارات والجسور مثلاً يستغرق وقتًا أطول، فيبدأون في تجهيزها أولاً، ويؤخرون مدَّ السكة الحديدة مثلاً لأنها تستغرق وقتًا أقلّ، إذ يستطيع الجنود المدربون أن يمدّوا في يوم واحد السكة الحديدية لعشرة وحتى عشرين ميلاً أحيانًا،

بينما يستغرق إقامة جسر واحد وقتًا أطول من ذلك، ولذلك يبدأون في بناء الجسور قبل مد السكة الحديدية.

ونفس الأمر بالنسبة إلى ترتيب القرآن الكريم، فعند نـــزوله قدّم الله تعالى ذكر القضايا التي كانت ضرورية في ذلك الوقت لأن القرآن الكريم لم يكن بين أيدي القوم بشكله الكامل، فكانوا لا يدرون ما القرآن وما الإسلام، وما الوحي وما الإلهام، وما هي العلاقة بالله تعالى، لذا ذكر الله تعالى عندها تلك المسائل الأساسية، ولكن الأجيال التالية كانت بحاجة إلى ترتيب آخر للقرآن الكريم؛ ذلك لأنه بسبب ورود هذه المسائل الأساسية في القرآن ظل هؤلاء القوم يسمعون آيات القرآن وأحكامه، ثم لما جاءت أجيالهم أخذت تسمع من الآباء هذه المسائل، إذ علّموها منذ الصغر ما الله تعالى، وما الرسول، وما الوحي، وما الإسلام، ولماذا بعث الله تعالى محمدًا، فلما كبروا كانت ذهنيتهم غير ذهنية آبائهم. ولكن حين نـــزل القرآن الكريم كان الكثير من المسائل التي نـــزلت فيه جديدة غريبة للناس، ولكنها لم تعد جديدة لأجيالهم. فمثلا عندما يولد في بيت ولد فلا بد أن يعلمه أهله، وإن كانوا أجهل الناس بدينهم، أنه إذا سألك أحد: مَن خلقك، فقل: الله. ولكن هذا السؤال لو وُجه إلى أكبر أسياد مكة في ذلك الزمن لأخذته الحيرة، وبدأ يفكر بماذا يجيب. أيقول: أخلَقني "اللات" أَم "مناة" أَم "عُزَّى" أَم "هُبُل"؟ ولكن هذا السؤال بسيط جدًا لأي ولد مسلم. ونفس الحال بالنسبة لمسألة القضاء والقدر فهي أمر بسيط لكل ولد مسلم – شريطة أن لا نخوض في التفاصيل – إذ يعلم أن الله تعالى هو الذي يفعل ما يشاء. فثبت أن الولد المسلم أكثر علمًا من أبي جهل وعتبة وشيبة ووائل في هذه المسائل، فعندما يقول الولد المسلم بكل شجاعة: إن كل شيء يتم بحسب المشيئة الإلهية، فهو دليل على أنه مؤمن بالقدر وإن كان يجهل تفصيل مسألة القدر؛ ولكن أبا جهل وزملاءه كانوا يستغربون من مسألة القدر قائلين: ما القضاء وما القدر؟ إذ كانوا يظنون أنهم يقومون بكل شيء بأنفسهم، أو أن أصنامهم أو آلهتهم أو الجن والعفاريت هي التي تقوم بكل شيء؛ إذ كان الواحد منهم يقترع بأسماء آلهته، فمن خرج منها سهمه ذبح باسمه الماعز أو ما إلى ذلك،

ظنًا منه أن هذا سيضمن له النجاح في عمله. ولكن الولد المسلم يقول إن الله تعالى يفعل كل شيء. فمثلاً حينما يقول لأمه: أماه، أريد شيئًا كذا. تقول له: يا بني، سأعطيك ما تريده حين يعطيني الله إياه. فيطمئن بهذا الجواب، لأن القدر عنده أمر يقين. ولكن عندما نـــزل القرآن كان القدر قضية عويصة الفهم بالنسبة لأهل ذلك الزمن، فكانوا يتعجبون مما قاله القرآن بصدد القضاء والقدر. أو خذوا قضية التوحيد مثلاً، فإن القرآن الكريم قد ركز عليه تركيزًا كبيرًا، ولكن عندما تحدث القرآن عن التوحيد أول مرة قال أهل مكة في حيرة: وما التوحيد؟ إن الصورة التي رسمها القرآن الكريم عن أفكارهم عند سماع التوحيد لعجيبة حقًا، حيث بين أن الكافرين يقولون كيف جعل محمد (ﷺ) الآلهة كلها إلهًا واحداً. إن هؤلاء ما كانو ليصدّقوا أن اللات ومناة والعزى ليست بآلهة، فقالوا ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾(ص:٦). إنهم لم يقولوا إن محمدًا (ﷺ) يقدم نظرية إله واحد، أو يقول إن خالق الكون واحد، بل ظنوا أنه قد جمع كل الآلهة وصنع منها إلهًا واحدًا، وكأن رسالة التوحيد عندهم هي أن محمدًا (ﷺ) قد قام بجمع اللات ومناة والعزى وغيرها من آلهتهم وسحَقها ثم جعَل منها إلهًا واحدًا. لذا فكانوا يحتارون من التوحيد، ويقولون ما هذا التعليم؟ أما اليوم فإن كل واحد من أولادنا يعلم ما هو التوحيد، لأنه لا يعرف ما اللات ولا مناة ولا العزى. إنه منذ طفولته يعلَم أن الله أحد. وقضية التوحيد سهلة الفهم لكل ولد صغير منا حتى إنك لو قلت له أن هناك آلهة عديدة، لضحك عليك واعتبرك من الأغبياء. ولكن أبا جهل كان يضحك على من يقول له إن الله واحد، ظنًا منه أن ما يقال له إنما هو مزاح واستهزاء. إذًا، فالقول بتعدد الآلهة استهزاء عند طفل مسلم، بينما القول بتوحيد البارئ كان استهزاء عند أبي جهل.

مجمل القول إن الأجيال المسلمة القادمة كانت بحاجة إلى ترتيب للقرآن الكريم هو غير ترتيبه النـــزولي، ولذلك قد وردت سورة الفاتحة في مطلع المصحف، ثم تلتها سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء ثم غيرها من السور.

إذًا، إن في ترتيب القرآن الكريم حكمًا بالغة، إذ كان ترتيب نـــزوله بحسب حاجات المعاصرين للقرآن الكريم، أما الترتيب الحالي فكان بحسب حاجات الأجيال التالية. وهذا برهان عظيم على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى.

ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن الترتيب الحالي أيضًا قام به الرسول ﷺ نفسه بناء على توجيه رباني، وليس أحد سواه ﷺ.

لقد ظن المفسرون أن قوله تعالى ﴿لَوْلا نـــزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ يعني أن الأنبياء السابقين كانوا يتلقون الوحي دفعة واحدة، ولذلك أثار الخصوم على النبي ﷺ هذا الاعتراض. (القرطبي)

والحق أن هؤلاء المفسرين لم يفكروا في أن القرآن الكريم يبين أن هذا الاعتراض قد أثاره كفار مكة، وهؤلاء القوم ما كانوا يؤمنون بأي كتاب سماوي، دَعْك أن يؤمنوا بأن جميع الصحف السابقة قد نـــزلت مرة واحدة. لو كان اليهود والنصارى هم الذين أثاروا هذا الاعتراض لكانت هناك إمكانية لصحة هذا الزعم، ولكنهم لم يوجهوا هذا الاعتراض قط، فلا يصح القول بأن الصحف السابقة كانت تنـــزل مرة واحدة، فقال الكافرون: لماذا لم ينـــزل القرآن دفعة واحدة؟

الحق أنهم لم يثيروا هذا الاعتراض إلا بناء على عقولهم، إذ كانوا يرون أنه لو كان هذا الوحي من عند الله تعالى لأنـــزله مرة واحدة لأنه عالم الغيب، ولكن نـــزوله بالتدريج يعني أن محمدًا (ﷺ) يلفّق – معاذ الله – من عند نفسه كلامًا بحسب الظروف المتجددة ويعرضه على الناس. فما دام بناء اعتراضهم على العقل وحده فلا يعني ذلك بالضرورة أن الوحي كان ينـــزل على الأنبياء السابقين دفعة واحدة. ولكن لو سلمنا جدلا بأن أهل مكة كانوا يقولون إن وحي الأنبياء قد نـــزل مرة واحدة، فلم لم ينـــزل القرآن دفعة واحدة، فهل نقيم لقولهم هذا وزنًا وأهمية؟ إنهم لم يكونوا خبراء بالعلوم السماوية، ولم يكونوا ملمّين بتاريخ الأديان، حتى نعير اعتراضهم أهمية. ولو أنهم قالوا هكذا فقولهم باطل مرفوض من الناحية التاريخية، ولا يمكن أن يصدقه أي إنسان مطّلع على تاريخ الأديان.

وأرى أن المفسرين قد وقعوا في هذا الخطأ لسبب آخر أيضا وهو أن الله تعالى يذكر في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام أُعطي الألواح على الطور (الأعراف:١٤٤-١٤٦). وبما أن المفسرين لم يكونوا مطلعين على الكتب الإسرائيلية فظنوا أن الألواح والتوراة شيء واحد، مع أن الألواح إنما تُطلَق على الأحكام الواردة في الخروج في الإصحاحات ٢٠-٣١، أما التوراة فتشمل هذه الأحكام وغيرها من الأحكام الكثيرة. ثم إن القرآن الكريم لم يذكر أبدًا أن هذه الأحكام قد نـــزلت على موسى دفعة واحدة. إذًا، لم يُعطَ موسى عليه السلام على الطور التوراة بشكل كامل أوّلاً، وثانيًا فإن ما نـــزل عليه من الأحكام على الطور لم ينـــزل دفعة واحدة بل في أربعين ليلة.

أما الأنبياء الآخرون فلا توجد هناك أي رواية ولو ضعيفة تقول إن ما نـــزل عليهم من الوحي نـــزل دفعة واحدة. ولو سلمنا جدلاً بوجود رواية كهذه فسوف نرفضها لأنها مخالفة للعقل. ذلك إن مكالمة الله تعالى مع أنبيائه دليل على صلتهم به تعالى، فهل يمكن أن نتصور عن أي نبي أن الله تعالى أنـــزل عليه وحيه كله في ليلة واحدة ثم ترك الكلام معه إلى الأبد. فهل يمكن أن يبقى هذا النبي حيًّا بدون مكالمة الله تعالى يا ترى؟ إنني أرى أن الله تعالى لو كلّم أنبياءه مرة فقط ثم ترك الكلام معهم لقتلهم هذا التصرف الرباني حتمًا وإن فشل الأعداء في القضاء عليهم. الواقع أن الوحي لا يزال ينـــزل على كل نبي باستمرار مسلّطًا الضوء على شتى أحوال حياته، ولا ينتهي الا عند وفاته. إن هذا الوحي يمثّل ظهورًا متجددًا لصفات الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى يشكل دليلا على تأييد الله ونصرته للنبي، ومن جهة ثالثة يقّدم للناس نماذج شتى لقوة إيمان ذلك النبي ويقينه، ليعرفوا مدى كمالاته الروحانية. ولو نـــزل الوحي عليه في بداية بعثته دفعة واحدة لما اجتمعت هذه الأمور كلها في وحيه، ولو لم يكن الوحي متّسمًا بهذه المزايا ما كان سببًا لهداية الناس ورشدهم. إذًا، فمن الضروري أن ينـــزل الوحي على أنبياء الله تعالى بالتدريج لكي تنكشف على الناس صلتهم بالله تعالى في كل مرحلة من حياتهم.

ثم إن من الحِكم وراء نـــزول القرآن الكريم بالتدريج أن نـــزوله بهذا الشكل يشكل دليلاً عظيمًا على صدقه، حيث إنه تحقيق لنبوءة لإشعياء النبي، إذ أنبأَ بأن الوحي الذي ينـــزل على نبي آخر الزمان سينـــزل تدريجًيا على شكل دفعات. فقد قال إشعياء النبي:

"لِمن يعلّم معرفة، ولِمن يفهّم تعليمًا؟ أللمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي؟ لأنه أمرٌ على أمر، أمرٌ على أمر، فرضٌ على فرض، فرضٌ على فرض. هنا قليلٌ وهناك قليل. إنه بشفة لَكْناءَ وبلسانٍ آخر يكلّم هذا الشعب الذين قال لهم: هذه هي الراحة. أريحوا الرازح، وهذا هو السكون. ولكن لم يشاؤوا أن يسمعوا. فكان لهم قول الرب أمرًا على أمر، أمرًا على أمر. فرضًا على فرض، فرضًا على فرض. هنا قليلا هناك قليلا، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء، وينكسروا ويُصادوا فيُؤخذوا." (إشعياء ٢٨: ٩-١٣).

هذه النبوءة تخبر أن كلام الله تعالى سينـــزل في زمن من الأيام إلى قوم محرومين من لبن الوحي. وبالفعل قد بُعث الرسول ﷺ حين انقضت على النبوة فترة طويلة وحين كان بنو إسرائيل أهلُ الكتاب قد أصبحوا محرومين من لبن الوحي. وقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى عطشهم الروحاني هذا فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:٢٠).. أي يا أهل الكتاب قد أتاكم رسولنا الذي يبيّن لكم أحكامنا بعد انقطاع طويل للرسل، كي لا تقولوا إنه لم يأت إلينا بشير ولا نذير.

ثم بين إشعياء النبي في نبوءته أن الوحي الذي سينـــزل على ذلك النبي لن ينـــزل دفعة واحدة، ولا في مدينة أو قرية واحدة، بل سينـــزل حكمٌ بعد حكم وقانونٌ بعد قانون، على فترات وفي أماكن مختلفة. وقد نـــزل القرآن الكريم هكذا بالضبط. فقد نـــزل بعضه في مكة، وبعضه في المدينة، وبعضه في السفر، وبعضه في الحضر؛ حتى إن الأعداء أنفسهم قد اعترضوا قائلين: ﴿لَوْلا نـــزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؟

ومن المستغرب أن المسيحيين لا يزالون يثيرون هذا الاعتراض ضد القرآن الكريم رغم وجود هذه النبوءة لإشعياء النبي، وبالتالي يؤكدون بأنفسهم على أن محمدا ﷺ كان مصداقا لنبوءة إشعياء النبي.

ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٥﴾

**شرح الكلمات:**

**وجوههم:** الوجه: نفسُ الشيء، والوجه من الدهر: أوّلُه. والوجه سيّدُ القوم؛ الجاهُ؛ الجهةُ؛ ما يتوجّه إليه الإنسان من عمل وغيره؛ القصدُ والنية؛ المرضاةُ (الأقرب).

**التفسير:** وبما أن الوجه يعني سيد القوم أيضًا، وعليه فقوله تعالى ﴿يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ يعني أنهم يدخلون جهنم يوم القيامة وهم يلعنون أسيادهم ويدعون عليهم بالويل والثبور. وسيتبرأون من رؤسائهم الذين كانوا يفدونهم بأرواحهم ويبيعون دينهم نتيجة تحريضهم. ذلك لأن الحقيقة ستنكشف عندئذ، ويعرفون كيف أنهم خسروا نتيجة اتباعهم لأسيادهم خسرانًا كبيرا.

لقد صوّر القرآن كراهيتهم وبراءتهم من أسيادهم في مواضع أخرى أيضا حيث قال الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾(فُصّلت:٣٠). وكذلك قال تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾(الأحزاب:٦٨-٦٩).

ومن هنا يمكن أن يدرك المرء مدى ضعف العلاقة التي أساسها الكفر والشر، وكيف تكون عاقبتها مؤلمة للغاية. نرى في الدنيا أيضا أن الزعماء المُغرضين الذين ليس همهم إلا الاحتفاظ بالقيادة والمناصب يأخذون بالجماهير في طريق غير مستقيم

بوعود معسولة، ثم يدفعون بهم إلى هوّة الهلاك، وعندما ينكشف على الجماهير خداعهم يدعون عليهم بالويل والثبور، ويعتبرونهم خونةً للشعب وأعداء للوطن، مع أنهم كانوا من قبل يرفعون الهتاف عن قائدهم قائلين: ليعيش ليعيش. وهذا بالضبط سيحصل في الآخرة أيضًا. فعندما يُساق الكافرون إلى الجحيم يلومون زعماءهم ويلعنونهم حين لن ينفعهم اللعن ولا اللوم، لأن وقت العمل قد انقضى، وزمن الجزاء بالخير أو بالشر قد أتى.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

**شرح الكلمات:**

**دمّرناهم:** دمّر عليهم: أهلكَهم (الأقرب).

**أصحابُ الرسِّ:** الرسُّ: البئر القديمة (الأقرب). وأصلُ الرسِّ: الأثرُ القليلُ الموجودُ في الشيء. أصحابُ الرسّ: قيل هو وادٍ. (المفردات)

**تَبَّرْنا:** تبَّره: أهلكَه ودمّرَه. كلُّ شيء كسرَه وفَتَّتَه فقد تبّرته (الأقرب)

**التفسير:** الآن يبيّن الله تعالى أن الإنسان لن ينجو من العقاب يوم القيامة بإلقاء جريمته على الآخر، لأن الله تعالى ما زال منذ بدء الخليقة يبعث رسله لهداية الناس

ويُظهر الآيات تأييدًا لهم، فإذا لم ينتفع أحد من الرسل فلن ينفعه قوله بأن زعماءه هم الذين قد قاموا بإغوائه.

لقد ذكر الله تعالى هنا أوّلاً مثال موسى عليه السلام الذي ظل شرعه صالحا للعمل للأمة اليهودية قرابة ألفي سنة. لقد أعطى الله تعالى موسى التوراة وجعل أخاه هارون نائبًا له، وأمرهما بأن يذهبا إلى فرعون وقومه ويبلّغاهم رسالة الله. فكفر فرعون وقومه بآيات الله، فدمّرهم وكتب الغلبة لموسى عليه السلام.

إن قول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ صريح في أن هارون كان تابعا لموسى عليهما السلام، ولكن الذين لا يتدبرون في الحقائق حق التدبّر فشلوا في فهم بعض آيات القرآن الكريم، فظنوا أنه كان لموسى وهارون كليهما كتاب مستقل وأمة مستقلة. ويستدلون على كون كل واحد منهما صاحب أمة مستقلة بما نقله القرآن الكريم على لسان أحد الأنبياء عن جدعون قوله ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾(البقرة:٢٤٩). ويستدلون على كون كل واحد من موسى وهارون صاحبَ كتاب مستقل بقول الله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٨)، و﴿الْمُسْتَبِينَ﴾ هو ما يبيّن أحكامه بكل وضوح.

والحق أنه ليس في كلمة ﴿آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ أي دليل على أن كل واحد منهما كان له أمة مستقلة. إذ يمكن أن تُنسب أمة واحدة إلى الاثنين، كما يمكن أن يكون المراد من آل هارون أقاربه.

ونفس الأمر بالنسبة إلى الكتاب، فلا شك أن هارون عليه السلام قد أعطي كتابًا، ولكنه لم يكن كتابا مستقلا، بل هو نفس الكتاب الذي أعطيه موسى أيضًا. ولا غرابة في ذلك، إذ إن الكتاب الذي أعطيه النبي ﷺ قد أُعطيناه نحن المسلمين أيضا، ولكن هذا لا يعني أنه قد نـــزل علينا كتاب مستقل آخر، إنما يعني ذلك أننا من أهل هذا الكتاب وتابعين له. كذلك إن هارون كان صاحب كتاب، ولكن لم ينـــزل عليه كتاب مستقل.

إن الآيات القرآنية التالية توضح لنا طبيعة العلاقة بين موسى وهارون – عليهما السلام.

يخبرنا القرآن الكريم أن موسى هو الذي التمس من الله تعالى أن يهب النبوة لهارون حيث قال ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي﴾(طه:٣٠-٣١). فيدعو هنا موسى ربه ﷻ أن يعطيه نبيًا وزيرًا يساعده ويزيده قوة. ثم يدعو صراحة أن يشركه الله تعالى في أمره.. أي أن الأمة هي أمة موسى، ولكن هارون يأتي ليساعده ويشاركه.

قد يقول قائل هنا: هذا ليس إلا دعاء من موسى، ولا ندري هل استجابه الله تعالى أم لا؟

والجواب: أن الله تعالى قد سجّل جوابه على دعاء موسى فقال ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾(طه:٣٧).. أي قد قبلنا التماسك. وهذا يعني أن الله تعالى قد أعطى موسى ما سأله، فوهب لهارون نفس الدرجة التي سألها موسى من أجله. فثبت من هنا أن هارون – رغم كونه نبيًا – كان نائبًا ومساعدًا لموسى فحسب. ومن الواضح أن أحدًا لا يمكن أن يكون نبيًا مستقلا ونبيًا تابعًا في وقت واحد، لأن كلاً من المنصبين يتعارض مع الآخر.

ويؤكد ما قلته ما كان بين موسى وهارون من علاقات، حيث يقول الله تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾(الأعراف:١٤٣).. أي أن موسى قال لأخيه قبل صعوده إلى الجبل: أَشْرِفْ على قومي في غيابي كنائب لي، وحاوِل الإصلاح دائما، ولا تقبل ما يقول لك الأشرار المفسدون.

لقد اتضح من هذه الآية أن موسى عليه السلام يعتبر هذا القوم أُمّةً له، ويعتبر نفسه سيدها، بينما يعتبر هارون عليه السلام خليفة له.

وقد يقول قائل هنا: إن هذه الآية تعني أن هارون كان حاكمًا على أمته المستقلة، وقد طلب منه موسى أن يشرف في غيابه على أمته أيضًا إضافةً إلى إشراف هارون على أمته هو.

ولكنه قول باطل لسببين أولهما: إذا كان موسى وهارون – عليهما السلام – نبيين مستقلين لأمتين مستقلتين، فلماذا كانا يعيشان معا؟ وثانيهما: ما هي الضوابط التي تميز أمة موسى عن أمة هارون؟ لو كان هارون من قبيلة وكان موسى من قبيلة أخرى، لقيل إن القبيلة كانت أُمّةً للأول، والقبيلة الثانية كانت أُمّةً للثاني. ولكنهما كانا شقيقين، فكيف يمكن القول أن هارون كانت له أمة مستقلة غير أمة موسى؟ هل كان هناك اتفاق بأن الذين آمنوا في يوم كذا عليهم أن يؤمنوا بكتاب موسى، أما الذين آمنوا في يوم كذا فعليهم أن يؤمنوا بكتاب هارون؟ أم أنهما قسما القوم بينهما؟ أم خيّروا القوم أن ينضم إلى موسى من يشاء وأن ينضم إلى هارون من يشاء؟ فكيف يمكن أن تكون لكل واحد منهما أمة مستقلة مع أنهما كانا شقيقين، وكانا يعيشان معًا؟

ويقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾(الأعراف:١٤٩). فهل يعني هذا أن أمة هارون لم تتخذ العجل إلهًا حيث ذكر الله تعالى هنا فساد قوم موسى دون فساد أمة هارون؟ ولو قيل: إن أمة هارون لم تتخذ العجل إلهًا، فلا بد من القول أن هارون قام برعاية قومه جيدًا، بينما لم يهتم بالإشراف على قوم موسى في غيابه إطلاقا.

ثم بعد ذلك يخبرنا القرآن الكريم أن هارون قال لموسى لما غضب عليه ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(الأعراف:١٥١).

فلو كانت لهارون أمة مستقلة فأين غابت أمته في تلك المناسبة؟ ولم لم تساعده ضد هؤلاء الذين أرادوا قتله من أمة موسى؟ ذلك أن أمة هارون المستقلة لم تكن قد فسدت عندها بحسب القرآن الكريم بل ظلت متمسكة بالإيمان، فكان عليها أن تساعد نبيها.

ثم إن هذه العقيدة الواهية تؤدي إلى مشكلة أخرى، وهي أن الله تعالى يقول في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۞ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾(طه:٩١-٩٢). فهنا يسمّي هارون هؤلاء الفاسدين قومه. فلو قيل هنا إنه قد وجّه هذا القول إلى أمته هو فكيف يصح قولهم ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾؟ فهل نقول أنهم كانوا أمة لهارون، ولكنهم كانوا يطيعون موسى فقط؟

إذًا، فهذه العقيدة ترفضها آيات كثيرة من القرآن الكريم. والحق أن هارون كان نبيًّا تابعًا لموسى - عليهما السلام - وأن قوم موسى هم قومه أيضًا. لم يكن لهارون أي جماعة مستقلة ولا أحكام مستقلة قليلة أو كثيرة؛ إنما أقامه الله تعالى لمساعدة موسى عليهما السلام. أما ﴿آلُ هَارُونَ﴾ فهم أقاربه الذين لم يكونوا أقارب لموسى، مثل أقارب هارون من قِبل زوجاته وزوجات أبنائه. أو المراد من ﴿آلُ هَارُونَ﴾ قومهما، وقد قال الله تعالى ﴿آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ للإشادة بخدمات الاثنين لإصلاح الخلق.

ثم ذكر الله تعالى نوحًا عليه السلام، وقال: لم لا ترون، أيها الكافرون، مثال قوم نوح الذي كان قبل موسى، وكان نبيا ذا شرع مثله؛ ولكن قومه لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم آية وعبرة للناس.

لقد قال الله تعالى هنا عن قوم نوح أنهم ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ مع أنهم لم يكذبوا إلا نوحًا، فكيف يصح هذا؟

والجواب أن الله تعالى قد بيّن بهذا أن الكفر برسول واحد هو بمنـــزلة الكفر بجميع الرسل، لأنهم سواسية فيما يتعلق بمنهاج النبوة، كما أن الأدلة التي تُثبت صدق نبي منهم تؤكد صدق نبي آخر أيضًا. ويمكن أن نفهم ذلك بمثال شخص قد أكل ثمرة "المانجو" من قبل، فإذا عُرض عليه المانجو لا يمكن أن يقول إنه ليس مانجو بل هو شمّام. ولكن الذي لم ير المانجو من قبل إذا رآه أول مرة لن يعرف أنه ثمرة مانجو. كذلك فإن الذي يعرف صدق الأنبياء معرفة صحيحة ويكون مطّلعا على أدلة وآيات صدقهم، فإنه كلما رأى نبيًا صادقًا عرفه وآمن به. ولكن الذي يدعي أنه يؤمن بجميع الأنبياء ثم يرفض رسولا يأتي بعدهم، فإنه يعلن من خلال عمله هذا

أنه لم يعرف أي نبي قط. فإنكاره ليس إنكارا لرسول واحد بل هو بمثابة إنكاره للرسل كافة.

ثم يذكر الله تعالى هلاك أمم أخرى، فقال لقد أهلكنا بعذابنا عادا وثمود وأصحاب الرسّ وشعوبًا كثيرة أخرى خلال هذه الفترة. لقد أوضحنا حقيقة الأمر بواسطة رسلنا لكل أمة من هذه الأمم، ولكنهم لما حاولوا القضاء على الحق دمرناهم كما دمرنا الأولين.

كانت عاد أمةً عظيمةً حاكمةً على شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وقد جاءت بعد زمن نوح بحسب القرآن (الأعراف:٧٠)، وكانت ذات قوة ومنعة بحسب قوله تعالى ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾(الفجر:٩). ولكنها لما عارضت نبيها هُودًا دمّرها الله تعالى تدميرا.

وهذا ما حصل لقوم ثمود أيضًا الذين كانوا خلفاء لقوم عاد. وكان مركزهم "الحِجر" التي كانت تقع بين المدينة المنورة وتبوك. لما ذهب الرسول ﷺ لغزوة تبوك توقف قليلا في الحِجر، ولكنه منع أصحابه أن يستقوا من مائها. فقال بعض صحابته: يا رسول الله، لقد عَمِلْنا العجين بمائها. قال: ألقُوا هذا العجين لأنه مكان قد نـــزل عليه عذاب الله تعالى. (البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: وإلى عاد أخاهم صالحًا)

ثم يخبرنا الله تعالى أنه أهلك أصحاب الرسّ. لقد اختلف المفسرون في أصحاب الرس كثيرًا (الطبري)، ولكن ما يبدو من هذه الآية هو أن هذه الأمة جاءت بعد ثمود لقوله تعالى ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾.. أي أن الله تعالى يذكُر هنا هذه الأمم بحسب ترتيبها الزمني، وهذا ما أكّده صاحب "البحر المحيط" إذ نقل قول ابن عباس بأن أصحاب الرس كانوا جزءًا من قوم ثمود. (البحر المحيط). ولما كانت ثمود آخر جزء من قوم عاد فيبدو أن أصحاب الرسّ خلفوا قوم ثمود وأنهم جاؤوا قبل انتشار نسل إسماعيل عليه السلام في الجزيرة العربية. ثم هاجر هؤلاء إلى فلسطين عند انتشار بني إسماعيل في الجزيرة، كما تدل على ذلك الآثار القديمة.

لقد حذّر الله تعالى هنا الكافرين من النتائج الوخيمة لتكذيبهم للنبي ﷺ بأنهم إذا لم يصلحوا أنفسهم فسوف يكون مصيرهم كمصير من كذبوا موسى ونوحًا وهودًا وصالحًا عليهم السلام، وسيُبادون من على وجه الأرض.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٢﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٣﴾

**التفسير**: هنا بين الله تعالى أن هؤلاء المشركين يمرّون في أسفارهم بتلك القرية التي أمطرنا عليها مطرا سيئًا، ومع ذلك لا يعتبرون برؤية مصيرهم.

والمراد من القرية هنا قوم لوط عليه السلام. أما قوله تعالى ﴿أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ فيعني أنه أصابهم زلزال عنيف جعل أعالي أرضهم أسافلها كما أوضح الله تعالى في مكان آخر ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾(الحجر:٧٥).

أما قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ فالمراد أن أهل مكة حين يخرجون في أسفارهم التجارية من الحجاز إلى الشام، يرون في طريقهم قرية قوم لوط، وكان ينبغي لهم أن يتخذوا العبرة برؤية دمارها وترتجف قلوبهم فيؤمنوا برسالة الله تعالى، ولكن قد قست قلوبهم، فلا يعتبرون برؤية آثار هذه القرية، بل يتمادون في تكذيب رسولهم ﷺ.

ثم بعد ذلك يبيّن الله تعالى سبب كفرهم، ويقول ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.. أي أن السبب الأساس لإنكارهم أنهم لا يؤمنون بالثواب والعقاب

مطلقًا وبالتالي لا يتدبرون في دعوة محمد ﷺ. لو كان في قلوبهم شيء من الخوف من الحياة الآخرة لما ازدادوا تمرّدًا واستكبارًا.

علمًا أن من معاني لفظ ﴿يَرْجُونَ﴾ يخافون أيضًا (الأقرب)، بل لقد قال صاحب "البحر المحيط" أن أهل تِهامة لا يستعملون لفظ الرجاء إلا بمعنى الخوف (البحر المحيط).

لقد تبيّن من ذلك أن لخشية الله والإيمان بالبعث بعد الموت تأثيرًا كبيرًا لفعل الصالحات. فإذا خلا قلب المرء من خشية الله والحياة بعد الموت مال إلى اللادينية والتمرّد، وحاد عن طريق الهدى حتى دخل النار. يقول الله تعالى إن عدم إيمانهم بالبعث بعد الموت هو الذي دفعهم إلى هذه الجسارة والعصيان، فيستهزئون بمحمد ﷺ ويسخرون منه ويقولون: إذا أراد الله تعالى أن يبعث رسولاً فكان عليه أن يبعث غيره. ولكنهم حين يرون ما وضع الله لمحمد ﷺ من قبول ونجاح، يقولون أنه كذاب ولكنه ذكي جدا، ولولا أننا تمسكنا بعقائدنا بقوة كاد يضلنا عن آلهتنا.

وهذا يدل على أن براهين صدق النبي ﷺ كانت تبلغ من القوة والوضوح بحيث إن كبار الكافرين أيضا كانوا يشعرون بأن البساط يُسحب من تحت أقدامهم، ولم يعودوا قادرين على إثبات صدق آلهتهم. ولكن كبرياءهم كانت تمنعهم من الإيمان، فيصرون على المعارضة ويقولون للناس إنه رجل ذكيٌ محتال فلا تتبعوه. يقول الله تعالى ردًا عليهم: إنهم حين يرون العذاب يعلمون ما إذا كان رسولنا صادقًا أم كان كذابًا يخدع الناس. وهذا ما حدث بالفعل، حيث إن الله تعالى كما أهلك قوم موسى ونوح وهود وصالح ولوط، كذلك أهلكَ جزءا من قوم محمد ﷺ من خلال الحروب، أما الآخرون فلم ينجوا من العذاب إلا بعد أن آمنوا ولاذوا بملاذ الله تعالى، شاهدين: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".